الرمز في أدب "يحيى حقي رواية " قنديل أم هاشم" أنموذجا

د. نجلاء نصير

مفهوم الرمز لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور "رمز الرَّمز: تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز: إشارة وإيماء بالعينين، والحاجبين، والشفتين، والفم والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين، ورمز يرمز رمزاً.(١) وفي التنزيل العزيز في قصة زكريا عليه السلام "**ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً...**"(٢)

اصطلاحاً:

وردت كلمة الرمز في التراث العربي بمعنى الإشارة، ولم تأخذ معنى "الإيحاء النفسي الرحب المقيد أو المحدد ، بل تعني الإشارة، وتدل على المعنى اللغوي العام وليس المعنى الفني الضيق "(٣).. فضلا عن ذلك فقد وردت في الكتب "البلاغية والنقدية القديمة بالمعنى الإشاري اللغوي"(٤).. ويعد قدامة بن جعفر "أول من تكلم عن الرمز بالمعنى الإصطلاحي" (٥).. إذ يعرف قدامة بن جعفر الرمز بقوله: "هو ما أخفى من الكلام، وأصله الصوت الخفي الذي لايكاد يُفهم، وإنما يستعمل المتكلم الرمز في كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم، فيجعل للكلمة أو الحرف إسماً من أسماء الطير أو الوحش، أو سائر الأجناس أو حرفاً من حروف المعجم، ويطلع على ذلك الموضوع من يريد إفهامه فيكون ذلك قولاً مفهوماً بينهما، مرموزاً عن غيرهما"(٦).. وتعد الرمزية إحدى المذاهب الأدبية، التي نشأت لتعبر عن أفكار ومبادئ فهي مجموعة من الأسس الفنية والمبادئ والآراء المتصلة والمنسقة لمفكر أو مدرسة، والتي تكون بمثابة العقيدة الممثلة لروح العصر ، وهي أشبه بالموجات في مجرى الفكر الإنساني "(٧).. فضلا عن ذلك فالمذاهب الأدبية تنشأ "شيئاً فشيئاً بتأثير العوامل الظاهرة والخفية إلى أن

تصل إلى دور تتميز فيه، وتصبح ذات كيان خاص وطابع يمتاز بلون من الاستقلال"(٨).. وهذه الدعوة من قبل "عباقرة العصر الذين اكتملوا في التكوين الأدبي، وأحاطوا بالتيارات الفكرية الممثلة لروح العصر"(٩).. ومهما يكن من أمر، فقد تعرض مصطلح **الرمزية** "لكثير من الاضطراب والعمومية في فهمه"(١٠).. وربما كان **أرسطو** أقدم من تناول الرمز"بمفهومه الفني يقول: الكلمات المنطوقة رموز لحالات النقل ،والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة"(١١).. ويرجع أصل كلمة رمز في"اللغة اليونانية القديمة **Symbolei**n التي تعني الحزَر والتقدير، وهي مؤلفة من Sum بمعنى مع و **Bolien** بمعنى حزر فهذه الكلمة **Symbol** مع معنى **Creed:** التي تعني دستور الإيمان المسيحي كما أنها تستعمل منذ القدم في الشعائر الدينية والفنون الجميلة عموماً، والشعر بخاصة للدلالة اللغوية والعنصر المشترك بين كل هذه الاستعمالات هو شيء يعني شيئاً آخر"(١٢)

في العصر الحديث، يعرف **أدونيس الرمز** بأنه :"اللغة التي تبدأ من حيث تنتهي لغة القصيدة، أو هو العقيدة التي تتكون في وعي القارئ بعد قراءة القصيدة.. إنه البرق الذي ينتج للوعي أن يستشف عالماً لا حدود له "(١٣)..

ويعرفه **إيليا حاوي** بقوله: "أشبه ما يكون بلحظة من النبوءة الشعرية، تتصل بما وراء الأشياء وما وراء جدار الحس والعقل، وهي الحالة التي قد تدركها النفس حتى تستقل وتتحرر من جسده.."(١٤).. فضلا عن ذلك يرى د. **صلاح فضل** أن البلاغة العربية القديمة رصدت في "لفتاتها الأسلوبية بعض مظاهر المرونة في أشكال محدودة، منها "الالتفات" الذي يعتمد على تعبير الضمير دون اختلاف المضمر والتجريد الذي يشمل في الحديث عن **أنا** باعتبارها **هو** لكنها لم تذهب في تتبع بقية مظاهر هذه الحركية إلى أبعد من ذلك مما يقع عبؤه على عاتق الأسلوبية المعاصرة، في وصفها لقوانين فك الشفرة الشعرية ومستويات الترميز الأدبي" (١٥)..

ومهما يكن من أمر، فإن النقد الأدبي يلعب دوراً هاماً في تحديد "المذاهب الأدبية ويحللها ويفسرها، ويسمي مبادءها وأصولها، ويوضح مكانتها الأدبية ومنزلة كل منها بين سائر المذاهب "(١٦).. فالإنسان منذ أقدم العهود قد اشتغل على "تطوير نفسه والسمو بتفكيره، تجسيد عالمه وسلوكه وأفكاره بأساليب مختلفة، تشتمل فيما تشتمل على الأصوات، الأشياء، الصور، الرسوم، الخرائط، المخطوطات، الكلمات المدونة والرسوم"(١٧)..

وتعزو **د. نهاد صليحة** استخدام الرمز في الأدب "إلى بداية الأدب نفسه، إلا أن الوعي النقدي بالرموز كوسيلة أدبية فعالة، لم يتبلور حتى القرن التاسع عشر"(١٨).. وبظهور "المدرسة الرمزية بفرنسا "(١٩) طرأ تطور كبير على مفهوم الرمز في النقد الحديث، إذ اتخذ "كوسيلة أدبية فعالة يكمن في محاولة الرمزيين استخدام تلك الأداة اللغوية كوسيلة لاختراق حجب الغيب والنفاذ إلى عوالم لا تصل إليها الحواس، وترتفع فوق تفاهات الحياة اليومية لتكشف عن أسرار الوجود، وتعبر عما يستحيل التعبير عنه "(٢٠).. وفضلا عن ذلك ،فالأدب الرمزي يفرض على المتلقي المساهمة في فك شفرة العمل الأدبي، فعليه أن يحزر المدلول الرمزي ويكشف عن شفرته .

ويرى د.**عز الدين إسماعيل** الرمز "وجهاً من وجوه التعبير بالصورة" (٢١).. بينما يراه د. **إحسان عباس** "الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري مع اعتبار المعنى الظاهري مقصود أيضاً"(٢٢).. ويرى د.**محمد غنيمي هلال** أن الرمز هو "الإيحاء، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة، التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية. والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء، بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح "(٢٣)..

فالرمز عند **تشارلز تشادويك** هو "**فن التعبير عن الأفكار والعواطف**" ليس بوصفها مباشرة، ولا بشرحها من خلال مقارنات صريحة وبصورة ملموسة، ولكن بالتلميح إلى ما يمكن أن تكون عليه صورة الواقع المناسب لهذه الأفكار والعواطف. وذلك بإعادة خلقها في ذهن القارئ من خلال رموز غير مشروطة" (٢٤).. ويعد **ميلارميه** من أقطاب الرمزية، و يعرف **الرمز** بقوله:"فن إثارة موضوع ما شيئاً فشيئاً حتى يكشف في النهاية عن حالة مزاجية معينة.. إن هذه العاطفة أو الحالة المزاجية يجب أن تستخلص عن طريق سلسلة من التكشفات"(٢٥).. فالرمز يشحذ قريحة المتلقي، ويجعله يمعن في قراءة العمل الأدبي ليفك شفراته "فليس المطلوب فقط أن **(يحزر)** القارئ مدلول الصورة الرمز، بل الأثر الرمزي الحقيقي "(٢٦).. فضلاً عن ذلك ،فإن **الرمز** يعد "وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية في صورة مكثفة ومركزة لها نفس الشحنة الشعورية التي تميز التجربة"(٢٧) _ومن العرض السابق نستنتج أن الرمز "كمصطلح أدبي ليس له معنى واضح، فهو ضباب مشع أكثر منه منطقة محددة "(٢٨)..

نبذة بيوجرافية

جاء مولد يحيى حقي في (١من ذي الفعدة١٣٢٢هـ_ ١٩٠٥م) في شقة أوقاف بحارة الميضة جاء في قلب القاهرة الشعبية، المنطقة المحيطة بمقام السيدة زينب إحدى حفيدات النبي "صلى الله عليه وسلم"، وقد استوطنت عائلته – ذات الجذور التركية القديمة – مصر منذ عام (١٢٨٢هـ_١٨٦٥م)(٢٩).. وجدير بالذكر أن عائلة يحيى حقي تختلف عن العائلات التركية بمصر والتي كانت "غالباً ما تشكل لها جماعات منفصلة كانت عائلة يحيى حفي تتجافى عن مثل هذا الشعور بالنخبوية، وتفضل البيئة المصرية الخالصة. وكانت منطقة السيدة زينب موئلاً أصيلاً للتقاليد المصرية الخالصة، وطريقة السلوك المصري التي توغل عميقاً في الماضي"(٣٠)..

وأما والده (محمد حقي) فقد كان موظفاً بوزارة الأوقاف، وكان محباً للقراءة والثقافة، وكان مشتركاً في عدد كبير من المجلات الأدبية والعلمية والثقافية وكانت أمه كذلك حريصة على قراءة القرآن الكريم ومطالعة الكتب الدينية. وفي هذا الجو الديني نشأ يحيى حقي لتتشبع روحه ووجدانه بالقيم الدينية الأصيلة .

عمل يحيى حقي معاوناً للنيابة في صعيد مصر لمدة عامين (١٣٤٦هـ_١٩٢٧م)، وقد انعكس أثر تلك الفترة على أدبه فقد كانت

كتاباته تتسم بالواقعية الشديدة ،وتعبر عن قضايا ومشكلات مجتمع الريف في الصعيد بصدق ووضوح، كما كانت إقامته في الأحياء الشعبية من الأسباب التي جعلته يقترب من الحياة الشعبية البسيطة، ويصورها ببراعة وإتقان، ويفهم الروح المصرية، ويصفها وصفاً دقيقاً وصادقاً في أعماله، وقد ظهر ذلك بوضوح في قصته "**قنديل أم هاشم**" و "**أم العواجز**". كما التحق بالسلك الدبلوماسي، وقضى نحو خمسة عشر عاماً خارج مصر، وقد بدأ عمله الدبلوماسي في جدة، ثم انتقل إلى تركيا،ثم إلى روما وعندما عاد إلى مصر إبان الحرب العالمية الثانية عين سكرتيرً ثالثاً في الإدارة الاقتصادية لوزارة الخارجية، وظل بها نحو عشر سنين" (٣١).. ومهما يكن من أمر فإن موضوع البحث يهدف إلى دراسة الرمز في رواية" قنديل أم هاشم" للمبدع الكبير: يحيى حقي فقد "كتب يحيى حقي الكثير قبل قنديل أم هاشم وبعدها، ولكنها ظلت عمله الأكثر توهجاً وجماهيرية بين بقية أعماله "(٣٢).. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن:

ما سر جماهيرية رواية "قنديل أم هاشم "؟

يعزو **د.جابر عصفور** سر جماهيريتها إلى "أنها تحولت إلى فيلم شهير عام ١٩٦٨من إخراج كمال عطية وقام بدور البطولة فيه الممثل القدير: شكري سرحان وكان معادلاً ابداعياً لشخصية

"إسماعيل"، التي ترجع إلى جذور قروية، ولكن الفيلم –إن لم تخني الذاكرة– نجح بسبب شهرة الرواية بالدرجة الأولى "(٣٣)

وعلى أية حال فإن رواية "قنديل أم هاشم" رصدت العلاقة بين الشرق والغرب، وقد عرضها "**توفيق الحكيم**" في "عصفور من الشرق"، واشتغل عليها الطيب صالح من خلال "**موسم الهجرة إلى الشمال**" ويقول في ذلك **يحيى حقي:**"سأرجع من جديد إلى روما، لأنني بعد أن أقمت خمس سنوات عدت إلى مصر وأحسست بصدمة كبيرة وأخذت أسأل نفسي: ما الذي حدث؟ لماذا هذا التأخر؟ صدمة شديدة أصابتني فاخترت أن أعبر عنها في شخصية شاب مثلكم، من عائلة فقيرة سافر إلى أوربا ،ليتعلم وعاد متنكراً لأصله . وقد حاولت تعرية هذه النزعة عند الشبان الذين ابتعثوا للدراسة فعادوا مرتدين "البرنيطة وبين شفايفهم البايب "ينفثون دخانهم في وجوهنا في احتقار وتنكر. فجعلت إسماعيل يرفض كل معتقداته المصرية.. حتى الدين "(٣٤).. "وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير في بلادي وأهلها، كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم. وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩م شعرت بجميع الأحاسيس التي عبرت عنها في "قنديل أم هاشم". إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب

المصري هزاً عنيفاً ويقول له: "اصح..تحرك، فقد تحرك الجماد .."(٣٥).. فضلا عن ذلك يعترف يحيى حقي "بأنه أولع حيناً بقراءة فرويد والتحليل النفسي،وعنه أخذ الاهتمام بالدافع الجنسي من حيث هو طاقة.. ولعل هذا الاهتمام بالتحليل النفسي هو ما قاد خطاه نحو تلك القصص الرمزية الخالصة فنلاحظ أن الرمز يعانق الواقع تماماً في بعض أعماله مثل "قنديل أم هاشم"(٣٦).. ويفسر يحيى حقي سر نجاح "قنديل أم هاشم" بقوله:"لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبي مباشرة كالرصاصة. وربما لهذا السبب استقرت في قلوب القراء بالطريق نفسها"(٣٧).. كما يوضح لنا يحيى حقي سر إختياره لإسم البطل بقوله:"واسم إسماعيل بطل "**قنديل أم هاشم**" أخذته من اسم صديق لي يُدعى إسماعيل كامل، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر في الهند، فقد كان يمثل في نظري محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب." (٣٨).. وتبدأ أحداث الرواية بتقنية الراوي العليم–الحفيد–"كان جدي الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل السيدة زينب، وغريزة التقليد تغني عن الدفع فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته.."(٣٩).. ويصف سذاجة هؤلاء القرويين؛ يقول:"ورائحة اللبن والطين والحلبة

تفوح من ثيابهم _ وتفهم ما في قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلونه، والأعمال بالنيات"(٤٠).. وحين قرر الجد الهجرة من الريف للقاهرة سعيا للرزق" اختار لإقامته أقرب المساكن لجامعه المحبب وهكذا استقر بمنزل للأوقاف، قديم يواجه ميضأة المسجد الخلفية في الحارة، التي كانت تسمى (حارة الميضة) ثم فتح جدي متجراً للغلال في الميدان أيضاً.. وهكذا عاشت الأسرة في ركاب (الست) وفي حماها: أعياد "**الست**" أعيادنا، ومواسمها مواسمنا، ومؤذن المسجد ساعتنا"(٤١).. ويسرد الرواي العليم كرامات أم هاشم:"فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته في الكُتَّاب، حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به، وأما ابنه الثاني فقد دخل الأزهر، واضطرب فيه سنوات وأخفق. ثم عاد إلى بلدنا ليكون فقيهاً ومأذوناً. بقي الابن الأصغر –عمي إسماعيل– آخر العنقود.. واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى.." فقد تضاعف رزق الشيخ رجب فجذب ابنه الأكبر للعمل معه وتوعد هذا الفضل إسماعيل بمستقبل مشرق الشخصيات..

إسماعيل (الشخصية المحورية)

وكان أوفر حظاً من إخوته، فقد سلمه الشيخ رجب "بقلب مفعم بالآمال إلى المدارس الأميرية، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله

القروي، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلمه، مع حشمته وكبير صبرإن حَرِمَ التأنق لم تفته النظافة، وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نُطقاًمن زملائه **(المدلعين)** أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان"(٤٢).. وفضلاً عن ذلك فقد تحول إسماعيل لمحط" آمال أسرته.. وهو لم يزل صبياً، لا ينادى إلا بـ **(سي إسماعيل)** أو إسماعيل أفندي، ولا يعامل إلا معاملة الرجال. له طيب الطعام والفاكهة إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب، وهو يتلو أوراده إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش، ومشت الأم على أطراف أصابعها"(٤٣)..

فاطمة النبوية

وهي "بنت عمه اليتيمة أباً وأماً – تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه في جلستها صامتة كأنها أمة، وهو سيدها– تعودت تسهر معه كأن الدرس درسها، تتطلع إليه بعينيها المريضيتين، المحمرتي الأجفان، وأصابعها تعمل في حركة متصلة لا تنقطع في بعض أشغال (التريكو). من ذا الذي يقول لإسماعيل تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى في السليم، هو أن تبدأ يده في الإبصار"(٤٤).. الست عديلة (جدة الرواي وأم إسماعيل)..

"أما جدتي –الست عديلة– بسذاجتها وطيبتها فمن السخف أن يقال إنها من البشر، وإلا فكيف إذاً تكون الملائكة، ما أبشع الدنيا وأبغضها لوخلت من مثل تسليمها وإيمانها"(٤٥) ما شاالله: "بائعة الطعمية والبصارة"(٤٦)..

الأسطى حسن: "الحلاق والدكتور"(٤٧)..

سيدي العتريس:

بواب الست: أليس اسمه من أسماء الخدم – لعله في مقصورته ينفض يديه وثيابه عن عمل النهار.."(٤٨)..

الشيخ دردير:

"خادم المقام.. تأتي إليه نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم. يشفي بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة الإيمان.. في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ دردير. ومع ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة فجلبابه القذر هو هو وعمامته الغبراء هي هي.. والحقيقة أنه مزواج لايمر العام إلا ويبني ببكر جديدة(٨٩)..

فتاة إسماعيل السمراء(نعيمة)

"واختص بانتباهه فتاة تأتي كل يوم زيارة سمراء جعدة الشعر، رقيقة الشفتين. هذه هي نعيمة، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها

الأهيف..لو دققت النظرلما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة" (٥٠).. وقد ورد ذكرها أيضاً وهي تتضرع لأم هاشم "أيرضيك أن جسدي ليس مني، فما أشعر بالألم وهو ينهشه نهشاً، ها هي روحي على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة تريد أن تفيق. منذ غادرني رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس نذرت لكِ يوم يتوب عليَّ المولى، أن أزين مقامك الطاهر.."(٥١)..

ماريا

"زميلته في الدراسة. لقد أخذ هذا الفتى الشرقي الأسمر بلبها فآثرته، واحتضنته عندما وهبته نفسها، كانت هي التي فضت براءته العذراء، أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال الفني، في الموسيقى، في الطبيعة، بل في الروح الإنسانية أيضاً"(٥٢).. يرى الناقد يوسف أبو رية أن قنديل أم هاشم "هي أبرز الأعمال الروائية التي عبرت عن معاناة هذا الجيل في عملية التوفيق الفكري هذه. فكيف عبرت قنديل أم هاشم عن هذا القلق عبر مصائر شخصياتها الأساسية" (٥٣)..

إسماعيل محور الأسرة

فالأب الريفي الشيخ رجب عبد الله كان قد وضع جل آماله في إسماعيل "سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولوية، فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشربات على الجيران.. وكذلك نشأ إسماعيل في حراسة الله ثم أم هاشم.."(٥٤).. بعد ظهور نتيجة البكالوريا" وأعلنت النتيجة فإذا به يفوز، ولكن في ذيل الناجحين. لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب.. آه لوعلموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه للصفوف الأولى.. لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا؟.. علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً في الشهر.. توكل على الله.."(٥٥).. فالأب يعقد العزم على أن يكمل ابنه المسيرة، حتى وإن كلفه ذلك فوق طاقته. فأقنع الأم التي أدركت أنه لا مفر من الرضوخ لرغبة الأب ومن ثم أوصى الشيخ رجب ابنه بحسن السير والسلوك في بلاد الغربة، مؤكدا للابن أنه وضع فيه جل آماله.

ماذا عن مصير فاطمة النبوية ؟

"واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية فأنت أحق وهي أحق بك.. وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا.. لم يسعه إلا القبول.."(٥٦).. وهل سكن قلب فاطمة بعد قراءة الفاتحة؟..

"أما فاطمة النبوية فقلبها واجف تسمع أن نساء أوروبا يسرن شبه عاريات، وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء. فإذا سافر إسماعيل، فلا تدري كيف يعود إن عاد!"(٥٧).. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن كم تكبدت الأسرة من عناء، لتدفع بابنها لطريق العلم؟.. "جمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال، وباعت الأم حليها، واشتُريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التي تقي من برد أوربا.."(٥٨).. فالأسرة هنا ترمز للمجتمع الذي يضحي من أجل الفرد، فقد لعبت أسرة إسماعيل هذا الدور منذ أن دفعه والده لطريق العلم وهيأ له الجو المناسب للمذاكرة وتابعت ذلك والدته وفاطمة النبوية، التي كانت تجلس صامتة لم تنبس ببنت شفة في حضرته، وهو يراجع دروسه تنتظر منه إشارة لتخدمه.

رمزية "قنديل أم هاشم" والموروث الفكري

فالرواية منذ الوهلة الأولى ومن العنوان "قنديل أم هاشم" تحمل للمتلقي قدسية المكان وصوفيته فالقنديل يرمز للنور، والضوء لكن قنديل أم هاشم يعكس ضوءاً لا يستمد نوره من زيت القنديل بل من بركة السيدة زينب" لألأ من نور يطوف بها، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء. هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام. هيهات للجدران أن تحجب أضواءه."(٥٩).. وهل تتوقف

بركة القنديل على ضوئه فقط؟.. فالشيخ دردير – خادم المقام– "تأتي إليه نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم "(٦٠).. فكان زيت القنديل يمثل مصدراً من مصادر رزق **الشيخ دردير** وهنا يشع الرمز مسلطاً ضوئه على قضية الولي والموروث الفكري للمجتمع المصري وهو التبرك بالأولياء الصالحين .

فيحيى حقي يطرح لنا هذه القضية قضية جهل المجتمع والظلامية التي تعشش في العقول.. كما يصور ببراعة الناس بالميدان فهم "أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى، ذابلة الأعين، يلبس كل منهم ما قدر عليه، أو إن شئت: فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابسه. نداءات الباعة كلها نغم حزين"(٦١)، فالناس شاحبة اللون.. إذن أين أثر التبرك على وجوههم وأجسادهم؟ وكأننا نقف أمام الرمز هنا يلقي الضوء على الفقر والجهل والمرض، فالناس ترضخ للظروف وتجنح للفقر والفاقة، وتحيا بلا هدف عظيم تجاهد من أجله، فالجهل حولهم لآلات يقتاتون على الفتات، يعالجون أجسادهم بالبركة. وهذا نستنتجه من السؤال الاستنكاري في قوله:"

ما هذا الظلم الخفي الذين يشكون منه؟ وما العبء الذي يجثم على الصدور جميعها..؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا

والقناعة، ما أسهل ما ينسون..!"(٦٢).. فالرضا والقناعة لم تأتهم من إعمال فكر، أورجاحة عقل ولكن الرضا هو المعادل الموضوعي للنسيان، فبالنسيان يواجهون الحياة ومن ثم تتكرر الحياة كلقطة مكررة في شريط سينمائي.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن:

- هل اكتفى حقي بوصفهم فقط أم جمعهم في مدرسة متكاملة؟

يقول:"هنا مدرسة الشحاذيين: حامل كيس اللقم يثقل الحمل ظهره، ينادي:

- لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب، جاعان

والشابة التي تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية: ياللي تكسي الولية يامسلم، ربنا ما يفضح لك ولية.."(٦٣).. فالمشهد المتلاحق الذي يصف تلك الوجوه، يجعل المتلقي يحبس الأنفاس من فرط جمال التصوير، وتكثيف العبارات فبين الشحاذ والشحاذة وبائع الدقة الأعمى،"ينقضي النهار فيودع كرش الطرشجي بقية براميله،تترك أقدام الخراط عملها اليومي وأدواتها، لتعود بصاحبها إلى الدار. لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساًله في كل يوم ضحية غريرة"(٦٤).. وهكذا ينقلنا حقي من خلال **إسماعيل** من لوحة إلى أخرى، فحين تنقضي لوحة النهار يرسم لوحة المساء،"يتقدم المساء

ينعشه نشيم ذو دلال. تسمع من القهاوي ضحكات غضة، وأخرى غليظة "حشاش". وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسيته سمعت ضجيج السكارى في خمارة أنسطاسي، التي يلقبها أهل الحي بفكاهتهم خمارة "آنست.."(٦٥).. وهنا يكمن سر النسيان، فالعقل المغيب هو سر الرضا بهذا المصير، ف "أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح ليس في الدنيا هم"(٦٦).. ومما يؤكد رسوخ فكرة الولي في أذهان المصريين هذا السر الذي أفضى به الشيخ دردير لإسماعيل بعد صلاة العشاء "تعرف يا سي إسماعيل ليلة الحضرة يجيء سيدنا الحسين والإمام الشافعي، والإمام الليث. يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة.. والسيدة سكينة. في كوكبة من الخيل، ترفرف عليهم أعلام خضر، ويفوح كم أردانهم المسك والورد.. فما من مظلوم إلأ وهو ظالم أيضاً، فكيف الاقتصاص له ؟"(٦٧).. ومما يؤكد على قدسية القنديل قول **الشيخ دردير**:"في تلك الليلة، هذا القنديل الصغير الذي تراه فوق المقام يكاد لا يشع له ضوء، ينبعث منه عندئذ لألأ يخطف الأبصار. إنني ساعتها لا أطيق أن أرفع عيني إليه. زيته في تلك الليلة فيه سر الشفاء – فمن أجل ذلك لاأعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين"(٦٨).. فسر بركة القنديل وزيت القنديل تكمن

في حضور أولياء الله الصالحين، الذين يعقدون "محكمتهم وينظرون في ظلامات الناس"(٦٩).. فرمزية **القنديل** هنا تكمن في الرضوخ والتسليم بموجبات معجزاته، من الناس الذين يعانون من الجهل والفقر ويتداون بزيت القنديل والنسيان. وقد نجح حقي في عرض ذلك من خلال الرمز الذي اتخذه "وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية في صورة مكثفة، ومركزة لها نفس الشحنة الشعورية التي تميز التجربة"(٧٠).. فقد نشأ إسماعيل في هذه البيئة الشعبية، التي يسكر أهلها بالتواكل على الأولياء، وديدنهم التبرك بهم أناء النهار وأطراف الليل يعرضون على المقاهي، والحانات فالحشيش والنبيذ هو وسيلتهم للنسيان، وهذا يعبر عن تناقض شديد يحيا فيه مجتمع يركن للتواكل ويرتضي بالفاقة والفقر ويلجأ للأولياء وفي الليل تكتظ المقاهي والحانات بهم .

ومن **المفارقات** التي يعرض لها يحيى حقي على لسان البطل محرك الأحداث إسماعيل المومسات اللاتي يكتظ بهم المقام "لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات – فسيدي العتريس مأمور أن لا يصد أحداً عن الساحة – يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر، عسى الله أن يتوب عليهن، ويمحو ما على الجبين من مقدر مسطور.."(٧١).. فقد كان للأدب الروسي في الأربعينيات "أثره

العميق في الشكل والمضمون على الكتاب العرب.وهناك موضوع كان قد أصبح شعبياً، وهو العاهرة كرمز للبراءة يفسدها الرجل. وخلاصها تبرئة لكل البراءة التي وقع عليها الفساد."(٧٢).. فنعيمة ترمز لهذه الفكرة، فهي تتوسل بأم هاشم أن تساعدها في الخلاص من العذاب الذي فصل جسدها عن روحها"أفي هذا الانفصال بين الروح والجسد يكمن الشيء الذي يفتن يحيى حقي؟ فالجسد حين تنزع طبيعته، لا يستطيع التعبير عن ارتعاشات الروح؛ ومن ثم يبدو وكأنه قد أصبح حجاباً يغطي الروح التي يمكن لحقي أن يأخذها ويشكلها كما يحب"(٧٣).. فالعاهرة ترمز لحقبة زمنية حين كان الجسد سلعة، يقول حقي:"إنه عند بداية القرن كانت مصر تصدر كل شيء، حتى العاهرات، و**كرومر** كان يتفاخر بأنه منع استقدام عاهرات إنجليزيات"(٧٤).. **فنعيمة** تئن بوجعها للمقام، تقول:"نذرت لكِ يوم يتوب المولى عليَ أن أزين مقامك الطاهر بالشموع. خمسين شمعة. يا أم هاشم يا أخت الحسين" (٧٥).. فالمجتمع الفاسد كان أحد أذرع هذا الفساد والسقوط الأخلاقي الذي كانت ضحيته المرأة "إن في المجتمع من الغرائز الفاسدة ما يجعل المرأة غير قادرة حتى على الارتفاع إلى مستوى الحيوان، وذلك في أكثر غرائزها أهمية" (٧٦).. وفضلاً عن ذلك كانت لحظة وداع إسماعيل للوطن "لحظة

الانتزاع من الأسرة والوطن لمواجهة الغربة والمجهول تضني أعصابه وتهصر قلبه.."(٧٧).. وكان آخر ما يذكره عن رحيله عن القاهرة" وقفته في صمت أمام ضوء القنديل، ويده معلقة بالسور تارة، ماسحة على وجهه تارة أخرى".. فالقنديل وسور المقام كانا آخر ما علق بذهنه.

اللقاء الأول بين الشرق بالغرب

ويتجلى الرمز هنا فنحن أمام مرحلة انتقالية في حياة إسماعيل، أو هي لحظة التنوير فاللحظة الفارقة بين الشرق والغرب هي لحظة خروج إسماعيل من مصر.. ويأتي الرواي العليم ليشرح لنا حالة إسماعيل في لحظات السفر...

"إنني أتخيله صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ، بطيء الحركة، غرير النظرة، أكرش، ساذجاً، كل ما فيه ينبيء أنه قروي مستوحش في المدينة .

أقسم عمي فيما بعد أنه كان يحمل في أمتعته قبقاباً، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء في أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية في البيوت، كما وصف لي وهو يبتسم سراويله وطوله وعرضها وتكتها المحلاوي. كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و**(المنين)** من عمل أمه فاطمة وفاطمة النبوية. وسافرت الباخرة "(٧٨).. فقد سافر

إسماعيل للغرب حاملاً معه فطرة الشرق وروح أسرته تحاصره في كل لحظة بالقبقاب، والمنين، وسراويله المحلاوي وهنا يكمن الرمز جليا. فضلا عن ذلك فقد تجلت عبقرية يحيى حقي في تصوير رمزية اللحظة الفارقة بين الشرق والغرب في شخصية إسماعيل تصويراً رائعاً فالمتلقي عليه"أن يحطم الأسوار التي تحد من الانطلاقات الفكرية والوجدانية. فالأديب عبارة عن اكتشافات جديدة ومستمرة للنفس البشرية ولا يتأتى هذا إلا عن طريق الرمز"(٧٩).. وقد استغرقت مدة الغربة"ومرت سبع سنوات، عادت الباخرة"(٨٠) وتتجلى رمزية العدد سبعة في الرواية.

يقول د.جابر عصفور"(لاحظ دلالة الرقم!) تبدل فيها حاله ،كما لوكان صعد من الأرض السابعة، فوصل إلى ما لم يكن يدوربخلده، أو يتخيله. ولم يعد هذا الفتى الذي كان عليه وقار الشيوخ حين صعد سلم الباخرة، بطيء الحركة.."(٨١).. فاستخدام يحيى حقي للرمز الذي يعد أفضل "طريقة للإفضاء بما لا يمكن التعبير عنه، وهو معين لا ينضب من الغموض والإيحاء"(٨٢).. فيفتح للمتلقي بؤرة وميض، من خلالها يفك شفرة النص، ويقرأ ما بين السطور، ويتلقى الرسالة المرسلة بشغف، حيث أن كل كلمة تحمل معانٍ مضاعفة.

فضلا عن ذلك فإن آليات الإيحاء "لا يوفق فيها المبدع، إلا إذا استطاع أن يخلق جواً من الإيحاءات المتجددة المتوالدة، تنقلنا إلى عالم جديد لا تعرفه"(٨٣).. وهذا ما نجح فيه يحيى حقي، فالنقلة الجديدة والتحول في حياة إسماعيل كانا نتاجاً لهذه الرحلة التي استغرقت سبع سنوات.

وبالمقارنة بين مظهر إسماعيل مغادراً مصر بمشهد العودة، نجد أن المفارقة تكمن في التطور الفعلي في المظهر العام،الذي أضفته عليه سني الغربة.

"من هذا الشاب الأنيق السمهري القامة، المرفوع الرأس، المتألق الوجه، الذي يهبط سلم الباخرة ؟ هو والله إسماعيل بعينه. أستغفر الله هو الدكتور إسماعيل، المتخصص في طب العيون، والذي شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر، والبراعة الفذة"(٨٤)

ومهما يكن من أمر فإن"قنديل أم هاشم كانت"تعبيراً عن الآثار النفسية العاصفة، في وجدان المثقف العربي ووعيه، نتيجة لقاء الشرق بالغرب، وتفاعلات اللقاء داخل المثقف الذي لابد أن ينقسم على نفسه، انقسامه على ماجاء منه وما ذهب إليه، وما عاد إليه في الوقت نفسه"(٨٥).. فضلا عن ذلك فقد "شغل يحيى حقي بقضية الجمود التي أصابت المجتمع المصري المسلم ،فالخرافة سيطرت

عليه، ويبدو هذا جلياً من الصراع الذي نشب في رواية قنديل أم هاشم بين إسماعيل حين عاد من أوربا وبين إسماعيل الريفي، ومجتمعه، ولذلك جاء إسماعيل يعلن التمرد على هذا الجمود والتخلف والظلامية"(٨٦). فالظلامية التي يرمز إليها التواكل والتداوي بزيت القنديل، والفقر والجهل الوهم المخيم على المجتمع، كان أولويات إسماعيل حين عاد من الغربة المكانية، ليحيا نوعاً جديداً من الغربة هو الغربة الزمانية فقد عاد شخصية أخرى"على شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة. له أذن فارزة واعية، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شيء، وتفهم كل شيء. إذا دققت النظرإليه وجدت تكورات وجهه قد زالت.. كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها في إنجلترانقلبت حياته رأساً على عقب؟ كان عفاً فغوى، صاحيا فسكر، راقص الفتيات وفسق"(٨٧).. إذن فقد تحول إسماعيل تحولاً كبيراُ فقد تذوق شتى صنوف المتعة واللذة والسقوط، والسؤال الذي يطرح نفسه..

- ما مقابل هذا السقوط ؟

فهذا "الهبوط يكافؤه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة. تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة، ويتمتع بغروب الشمس – كأن لم يكن في وطنه غروب لا يقل عنه جمالاً– ويتلذذ بلسعة برد الشمال."(٨٩)

لكن ما سر هذا التحول في حياة إسماعيل..؟ وما ثمن التغريب..؟

"لقد استحضر حقي بشكل جيد هذه الفجوة بين الشرق، والغرب في "**قنديل أم هاشم**"، وذلك من خلال المقابلة بين منظور إسماعيل ومنظور ماري إلى الحياة: فحين يقول لها إسماعيل "**تعالي نجلس**" تكون هي تواقة للمشي فتقول له "**قم نسر**"

وحين يحدثها عن المستقبل تحدثه عن الحاضر، خوفه كان من الحرية، وخوفها كان من القيود"(٩٠)..

وعلى أية حال فقد كانت ماري رمزاً للغرب إذ "أخذ هذا الفتى الشرقي الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته. عندما وهبته نفسها، كانت هي التي فضت براءته العذراء، أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال: في الفن، والموسيقى.." (٩١) فماري جسدت لحظة" التقابلات الحدية المقترنة بالرحلة نفسها، أي بحركتها بين نقيضين لا يلتقيان مادياً، لكنهما يمكن أن يلتقيا معنوياً أو فكرياً، شريطة أن يجذب الطرف الأقوى إليه الطرف الأضعف فيستوعبه أو يسهم في تحوله على مستويات كثيرة. والتحول هنا يتم على المستوى الرمزي الذي جعل من حضارة الضفة الأخرى متمثلة في امرأة؛ ومن حضارة الأنا للشرق متمثلة في رجل.والمعنى الرمزي للمرأة قرين الغواية التي تجذب إليها الذكر،

فتخرجه من عالمه الساكن الجامد الذي كان يتقوقع فيه إلى عالم آخر أكثر تقدماً وحركة وحيوية "(٩٢).. فلحظة التحول في حياة إسماعيل بدأت من الرحلة، التي يمكن أن نطلق عليها لحظة التنوير. فإسماعيل سافرت معه روح الشرق"قال لها يوما:

- سأستريح عندما أضع لحياتي برنامجاً أسير عليه .
- فضحكت وأجابت: يا عزيزي إسماعيل. الحياة ليست برنامجاً ثابتاً. بل مجادلة متجددة"(٩٣).. فالشرق يقابل الغرب في كل شيء فالحياة في الشرق رمز إليها إسماعيل بالبرنامج (الروتين)، لكن الغرب يرى الحياة من وجهة أخرى (مجادلة متجددة) فإعمال العقل يولد المجادلة .

من الثنائيات الضدية التي عقدها حقي بين الشرق والغرب "كانت هبتها له في مبدأ الأمر محل حيرته ،فكانت حيرته محل سخريتها التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً. أما هي فتهيم بالناس جميعاً، ولا تهتم بهم.. التعارف عندها لقاء. والود متروك للمستقبل.."(٩٤).. فمن هذه الثنائيات الضدية نخرج برمز جديد، وهو المقابلة بين روح الشرق وعقل الغرب فالشرق يركن للروحانيات والغرب يركن للعقل والعمل .

وهذا يتجلى في موقف ماري(*) من إسماعيل حين كان "يطيل جلسته

بجانب الضعفاء من مرضاه ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول

- وماأكثرهم في أوربا. "(٩٥)

فقد كان إسماعيل يلعب قلبه الدور الأكبر في التعامل مع المرضى، ولكن ماري لم تعجب بهذا السلوك، وأكدت له "أن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة؛ لأنها غير عملية، وغير منتجة، وإذا جردت من النفع، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان. إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح"(٩٦).. ونتج عن هذا الصراع أن استيقظ إسماعيل "في يوم، فإذا روحه خراب، لم يبق فيها حجر على حجر. بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهيروالنفس البشرية لا تجد قوتها، ومن ثم سعادتها، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها. أما الاندماج فضعف ونقمة "(٩٧).. ففي تلك اللحظة بدأ إسماعيل ينسلخ من عادات وتقاليد الشرق حتى رأى أن الدين وجد للضعفاء، فهو من وجهة نظره خرافة، فتسرب الدين من قلبه، وتخللت العلمانية عقله.. وشيئاً فشيئاً بدأ في التخلص من سطوة ماري بعد أن اجتاز "هذه المحنة التي يقع ويتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في أوربا، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة وثابتة.إن أطَّرحت الاعتقاد في الدين، فإنها استبدلت إيماناً أشد

وأقوى بالعلم."(٩٨).. وهنا يتجلى الرمز بأن حل العلم محل الدين، وهنا إشارة لتفوق وسطوة الغرب على الشرق، أو لسطوة العقل على الروح .

فضلا عن ذلك فقد لعبت ماري دور بيجماليون"إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم"(٩٩).. فبانفصاله عن تأثير ماري تحولت عنه إلى زميل آخر على أن "إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة دعاها فلم ترفض وجاءته.."(١٠٠)

وعلى أية حال، فالرواي العليم يطرح سؤالاً استنكارياً:

"والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه **(لماري)**، فوجد نفسه فريسة حب جديد. الأن القلب لا يعيش خالياً؟ أم أن **(ماري)** هي التي نبهت غافلاً في قلبه، فاستيقظ وانتعش؟"(١٠١).. فالغفلة تقابل الاستيقاظ والانتعاش، فإسماعيل أتقن حياة الغرب التي تكمن في مادية اللذة، وفي تلك الحالة كان لا يشعر بمصر إلا "شعورا مبهما.. أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه. في ذهنه مصر عروس الغابة، التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت .."(١٠٢).. والرمز يتجلى هنا في تشبيه مصر بعروس الغابة، فالغابة الطبيعية ترمز للفطرة، والساحرة ترمز للجهل والخرافة، اللذان تمكنا

من مصر فنامت عليها الحلى ولذلك جاء السؤال استنكاريا:

- "**متى تستيقظ متى؟**"(١٠٣)..

فالسؤال يرمز لرغبة عارمة في التغيير وخلع رداء الخرافة والجهل عن مصر، ودعوة للتجديد والتنوير فالسبات يرمز للغفلة، والرغبة في الاستيقاظ بؤرة التنوير.

"في أعماق نفسه كانت تبتدي بذورالتجديد الممكن لقد أزال الاتصال بالمادية، وربما بالعقلانية حجاب الركود لتتفتح إمكانات جديدة. لقد صنعت ماري من إسماعيل رجلاً مؤمناً بالعقل. لدرجة أنه حين عاد إلى مصر تمزق بمجموعة القيم الجديدة التي كان قد اكتسبها.لقد ملأه القلق حينما واجه مفارقات موقفه الجديد .."(١٠٤)

الثورة والتجديد

السؤال الذي نطرحه في هذا المجال كيف ينظر إسماعيل للمصريين؟ "وكلما قوي حبه لمصر، زاد ضجره من المصريين. لكنهم أهله وعشيرته، والذنب ليس ذنبهم. هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن.. ليس عبثاً أن عاش في أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه.. علم أنه سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل، لكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه بل كان يتشوق للمعركة الأولى"(١٠٥).. فالمعركة ستحتدم بين الجهل والعلم بين الخرافة

واليقين، ولذلك سرح إسماعيل بذهنه "فإذا هو كاتب في الصحف أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح آراءه ومعتقداته"(١٠٦).. فالكاتب هنا يرمز للتنوير بالقلم والكلمة فهما السلاح الوحيد الذي سيواجه به إسماعيل سرطان الجهل والخرافة.

ولكن كيف سيواجه هذا الظلام المخيم على العقول والقلوب؟.. فقد "علمته **(ماري)** كيف يستقل بنفسه، هيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم.."(١٠٧).. فماري وهي رمز الغرب هنا قد علمته أن يستقل بنفسه وجعلت منه شخصية تزن الأمور بميزان العقل، فالعقل هو السبيل الوحيد والسلاح القوي الذي سيحارب به إسماعيل جهلهم.. فقد خرج إسماعيل بجذوره الريفية وعاد محملا بالعلم، ناقماً على الجهل والظلامية وتحرك القطار وتحركت معه أفكار إسماعيل فهو لم يرسل برقية لأبويه "على نجوة من الغرباء. لم يقدر على وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز. ذكرهما فوجف قلبه. هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ما هو مدين به؟ إنه قادم مزود بالسلاح الذي أراده أبوه، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف.."(١٠٨).. فإسماعيل في رحلة العودة يعيد ترتيب أوراقه من جديد فشتان ما بين إسماعيل قبل الرحلة، وبعدها .

ونتساءل الآن ما مصير فاطمة النبوية ؟

ففاطمة بفطرتها ترمز للشرق."وفاطمة النبوية ذكراها تثير في نفسه بعض الاضطراب، لم يزل مرتبطاً بوعده، وقد عاد حراً، فلا عذر له إذا اعتذر، هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل"(١٠٩) فالفاتحة التي قرأها قبل سفره مضطراً، حتى لا يغضب والديه، يتمنى الإعتذار عنها بعد الرحلة، لكنه ترك هذه المعضلة للمستقبل فمع تحرك القطار تتحرك الأفكار، وتتلاحق في ذهن إسماعيل. ويتجلى الرمز في هذا المشهد حين أطل إسماعيل من النافذة "فرأى أمامه ريفاً يجري، كأنما اكتسحه عاصفة من الرمل. فهو مهدم معفر متخرب. الباعة على المحطات في ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد، وتتصبب عرقاً"(١١٠).. فالمشهد يعكس استمرارالحال على ما هو عليه. فرغم رحلة السفر، التي استغرقت سبع سنوات، إلا أن المشهد لم يتحرك قيد أنملة، بل"كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه: قذارة وذباب. وفقروخراب، فانقبضت نفسه، وركبه الوجوم والأسى، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه "(١١١).. فعودة إسماعيل كشفت عن حالة أسرته، التي كانت تضحى من أجله فالأب قد "اشتعل شيبه، وإن لم تنحن قامته. في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر.. سيعلم إسماعيل فيما بعد، أن الأزمة كوته بنارها، فانتكست أموره،

ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لإبنه. لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه، أو يدعوه إلى الاقتصاد أو العودة.." (١١٢).. فحياة أسرته التي تكبدت العناء من أجله تعكس، وجهاً آخر لحياة إسماعيل، الذي كان "يلهو مع رفيقته في إسكتلندة يأكل البوفتيك، وأبوه قعيد الأرض، عشاؤه طعمية أو فجل"(١١٣).. والرمز يتجلى في مشهد تفحص عين إسماعيل للدار، "فإذا هي أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر.."(١١٤).. فالدار لم تتغير ولكن نظرة إسماعيل التي دفعت ثمن التغريب هي التي تغيرت فباتت ترى الأشياء من منظور آخر وتعقد المقارنات الذهنية والقياس العقلي. وهنا يتجلى الرمز في الركود الفكري والثقافي فما الضيق والظلمة إلا المعادلين الموضوعيّن للجهل والخرافة.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن..

- **كيف بدت فاطمة النبوية بعد سبع سنوات ؟**

"أقبلت، فإذا أمامه فتاة في شرخ الصبا. ضفيرتاها، وأساورها الزجاجية الرخيصة، وحركاتها، وكل ما عليها، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف، هل هذه هي الفتاة التي سيتزوجها..؟ "(١١٥).. فالرمز يتجلى هنا في قوله:"وكل ما عليها يصرخ بأنها قروية" ففاطمة النبوية ترمز للشرق بفطرته.. والتمرد

يتجلى في السؤال الذي يطرحه إسماعيل:

"لم يملك نفسه عن التساؤل!كيف يستطيع أن يعيش بينهم؟ وكيف يجد راحته في هذه الدار؟"(١١٦).. فالسؤال يعبر عن الصدمة التي شعر بها إسماعيل، فهو لا ينفك عن عقد المقارنات الذهنية بين الغرب والشرق.. ومهما يكن من أم فإن فاطمة النبوية ترمز للخضوع للوهم والخرافة حين قبلت بتقطير زيت القنديل في عينيها "سألها إسماعيل:

- **ما هذا يا أمي**
- **هذا زيت قنديل أم هاشم. تعودت أن أقطر لها منه كل مساء.**

لقد جاءنا به صديقك الشيخ دردير ي. إنه يذكرك ويتشوق إليك .."(١١٧) فما موقف إسماعيل من ذلك؟

"فصرخ في أمه بصوت يكاد يمزق حلقه

- حرام عليك الأذية .حرام عليك.....
- اسم الله عليك ياإسماعيل يا ابني. ربنا يكملك بعقلك هذا غير الدوا والأجزا. هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثورٍ هائج ..

- أهي دي أم هاشم بتاعتكم هي اللي هتجيب للبنت العمى سترون كيف أداويها، فتنال على يدي أنا الشفاء، الذي لم

تجده عند الست أم هاشم"(١١٨)

فهنا يكمن الصراع بين العلم والجهل والخرافة... فإسماعيل يرمز للعلم الذي يجاهد الخرافة والجهل الذي يرمز إليه زيت القنديل يحاول أن يثبت للشرق أن الخنوع للجهل سيؤدي للعمى وفقدان البصر والبصيرة فالعلم هو الوسيلة الوحيدة للتنوير، فالرمد يرمز للظلامية والجهل، ليس بعجيب على يحيى حقي أن جعل إسماعيل طبيباً للعيون يعالج العمى ويبدد الظلام بالنور.

وما العمى إلا ظلام الجهل والخرافة اللذان تقبع تحتهما مصر في تلك الحقبة وما استسلام فاطمة النبوية إلا رمزاً لهذا الاستسلام المسلوب الإرادة لمن يقرر لها مصيرها، ففاطمة النبوية لا تملك حق الاعتراض، فقد احتلتها سلطوية الأسرة تتحكم في مصيرها، حتى حبها لإسماعيل لمن يكن اختياراً، بل هو أمر واقع لما تقبع تحته من ظروف، ففاطمة لم تندمج في الحياة، ولم تخرج من البؤرة المتحكمة في مصيرها فلا حرية ولا اختيار لذلك خنعت لرأي زوجة عمها، وتقبلت العلاج بزيت القنديل..

- ألا تشبه فاطمة مصر في تلك الحقبة من الاستعمار السياسي والفكري؟!..
- ألا تشبه فاطمة النبوية المرأة المصرية التي لا تمتلك حرية

تقرير مصيرها، والتي تلعب دور المفعول به في تلك الحقبة؟!

- ألا ترمز فاطمة النبوية لمصر، التي خيمت عليها ظلامية الجهل والفقر والخرافة ؟!
- لماذا يهرب البشر من الواقع للخرافة والظلامية والجهل ليعالجوا قضاياهم المجتمعية ؟!
- ألم تكن الإجابة الشافية هي الانخراط في تيار الوعي الجمعي، والخوف من المعارضة. فالمواطن آنس الخنوع، لأن الوعي الجمعي أسس لذلك فمن يخالف يعاديه المجتمع، ومن يخرج عن القطيع يحارب ألم يصف والد إسماعيل ابنه بالكفر، حين باح بما في صدره، وسخَّف فكرة العلاج والتبرك بالقنديل ؟!

وهل هذه الظلامية فترة زمنية أم مضمون فكري؟!، فعدسة يحيى حقي اللاقطة ترصد في "قنديل أم هاشم " موقفه من المفارقات في المجتمع المصري والمجتمع الغربي "تجد تجليها في اختلاف مفهومه عن نساء الطبقة الوسطى في مصر، ونساء الطبقة الوسطى في الغرب. **فماري** نموذج أخر لمثل هذا الشخص المتحجب، فهي محجبة من حيث إنها لا تظهر كمحفز، يوجه النزوع المهيمن الكامن في شخص آخر، ويسرع إيقاعه. وحيث إنها لم تُرَإلا جزئياً، فلاشك

في حدوث لحظة كشف الحقيقة المرعبة، حين تمزقت القشرة الواهية، التي تعطي المرأة المثالية، لتكشف لنا عن وحش.. فالمرأة هنا هي الطارئ المؤقت في حياة الرجل، الطارئ الذي يساعده على الوصول إلى هدفه.."(١١٩)

فالقضية التي يتبناها حقي ليست الخنوع للغرب، وليست الأخذ عنه دون التدقيق والتمحيص فقد ضرب حقي من خلال إسماعيل الذي أبهرته ماري فوقع فريسة لاقتحامها وتحول لعجينة صلصال، تشكلها وفقاً لثقافتها وعاداتها المجتمعية الغربية. فارتداد إسماعيل وانقلابه على هذا الانصياع هو رمز لتجذر الشرق وقوته الراسخة في نفس إسماعيل "ورغم الحب والرعاية فقد غيرته من ولد ضعيف إلى رجل قوي ومستقل. وعند هذه النقطة، وحين فتح النسر جناحيه تحولت ماري عن تلميذها، هنا بالضبط واحدة من الشخصيات التي كان يسميها فورستر شخصيات مسطحة.. فهي مقدمة كوسيلة لتحقق أثراً مأمولاً وتم ابعادها حين اقتضت الحبكة منها أن تتغير.. فمن حب ماري وهو عاطفة محتدمة نحو فرد، يمكن لإسماعيل الآن أن يستخلص ويخطط لحب شيء إنساني خارق لحب بلد هي مصر" (١٢٠).. فثورة إسماعيل على الجهل والخرافة مصدرها الرئيس هو حبه لمصر.

ويتضح ذلك في قول إسماعيل:"**أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت**" (١٢١).. ومما يؤكدعلى تجذر الخرافة بقلوب المصريين هو رد فعل أبيه:"ماذا تقول؟ هل هذا ما تعلمته في بلاد بره؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً؟"(١٢٢).. فوسم إسماعيل بالكفر جاء نتيجة لحظة التنوير التي أفاضت على عقله، ومن ثم سكن قلبه، فالروحانيات بعيدة كل البعد عن إسماعيل، بعد أول صدام بينه وبين القنديل فور عودته من أوربا .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن:

- **هل رد فعل إسماعيل كان نتاجاً للوعي أم اللاوعي ؟**

"كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة.. فقد وعيه وشعر بحلقه يجف، وبصدره يشتعل، وبرأسه يموج في عالم غير العالم..هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة، فتشبثت بها لحظة ثم تركتها له. فأخذها من يدها بشدة وعنف، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة." (١٢٣).. وهنا يتجلى الرمز فإلقاء الزجاجة من النافذة هو المعادل الموضوعي لإعلان الثورة على الظلامية والجهل، الذي عشش في عقول وقلوب المصريين. ومهما يكن من أمر فإن ثورة إسماعيل، وردود أفعاله المتلاحقة السريعة تنبئ بقوة تيار التنوير فهو لم يهدأ بعد إلقاء

الزجاجة من النافذة بل اتخذ قراراً بوأد مصدر الظلامية والخرافة.. "وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جريا. لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة في الصميم طعنة نجلاء – **ولو فقد روحه.**" (١٢٤).. فضلا عن ذلك تكمن المفارقة في رؤية إسماعيل للناس بالميدان،"فإذا به يموج كدأبه بخلف غفير ضربت علهم المسكنة، وثقلت بأقدامهم قيود الذل. ليست هذه كائنات حية تعيش في عصر تحرك فيه الجماد. هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة، هؤلاء المصريون جنس سمج ثرثار أقرع أمرد، عار حاف، بوله دم، وبرازه ديدان.. يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه"(١٢٥).. فقد وصف إسماعيل المصريين الذين يقبعون تحت مظلة الذل، الفقر، الهوان، المرض.. ونظرته لمصر تتجلى في لوحة وصفه "ومصر؟ قطعة **(مبرطشة)** من الطين أسنت في الصحراء. تطن علها أسراباً من الذباب والبعوض ويغوص فيها على قوائمه قطيع من الجاموس نحيل.." (١٢٦).. فهذه الصورة السلبية عن مصر التقطها بعدسته الأوربية، فنظرته اليوم غير نظرة الأمس بعد أن عقد مقارنة ذهنية للمجتمع الأوربي الذي عاش فيه سبع سنوات كاملة يتشرب العلم وقيم الجمال، خلع عن نفسه الروحانيات وتسربل بقبعة العلم والعمل.

فنظرة **إسماعيل** إلى مصر "بعيني أجنبي، بعيني شخص مقطوع من هذه الأرض، ومن ثم لم يستطع أن يظهر نفسه عبر التوافق مع روح هذه الأرض. ولم تكن المسألة أن إسماعيل رأى مصر فاسدة وشريرة فحسب، بل إنه رآها في الحقيقة مفسدة.."(١٢٧)

وعلى أية حال يتجلى الرمز في صحوة إسماعيل فقد تمنى "لو إستطاع لأمسك بذراع كل واحد منهم، وهزه هزة عنيفة، وهو يقول:

- استيقظ.. استيقظ من سباتك وأفق، وافتح عينيك.. ما هذا الجدل في غير طائل؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف؟ تعيشون في الخرافات، تؤمنون بالأوثان، تحجون للقبور وتلوذون بأموات "(١٢٨)

ويمكن لنا أن تتساءل هل ثورة إسماعيل على الجهل، كانت نتاجاً لتنصله من جذوره؟.. ومهما يكن من أمر فإن ثورة إسماعيل تغلفها غيرة على مصر وأهلها، لولا هذه الغيرة ما استفزته مناظرهم،وما ثار على خنوعهم، فهو يراهم"كأنهم عُمي يتخبطون. هذا الرضا عجز، وهذه الطيبة بلاهة، وهذا الصبر جبن، وهذا المرح انحلال" (١٢٩).. فهذا المشهد يلخص وجهة نظره، وسر ثورته عليهم.. فلم تكن الثورة ناتجة عن تنصل من الجذور، بل كانت ثورة لإعادة بناء تلك الجذور، وتصحيح مسارها نحو التنوير.. ويتجلى ذلك في رؤيته

للقنديل"المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة، من عطور البرابرة. هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودت سلسلته من **(هبابه)**. تفوح منه رائحة احتراق خانقة، أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص. هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل، يحوم في سقف المقام خفاش اقشعرله بدنه"(١٣٠).. فالخفاش يرمز للعقول الخربة التي عشش فيها الجهل والخرافة.. فالناس يتكالبون على المقام "كالخشب المسندة وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار.."(١٣١).. فالشلل ليس شللا عضوياً، الشلل هنا هو المعادل الموضوعي للشلل الفكري. ويتجلى الرمز في الصراع الذي صوره حقي بجدارة لتحطيم القنديل فإسماعيل "فقد وعيه، شعر بطنين أجراس عديدة وزاغ بصره، ثم شب، وأهوى بعصاه القنديل فحطمه وتناثر زجاجه وهو يصرخ:

- أنا ...أنا ...أنا"(١٣٢)

فإسماعيل أصابته نوبة جنون ثورية على الجهل والظلامية، فهب لاستئصال الورم الخبيث بيده، فما كان من الجموع إلا: هجمت عليه، وتهدمت فوقه.. وسال الدم على وجهه. ومزقت ثيابه.. لولا أن تعرف عليه الشيخ دردير..."(١٣٣).. نتج عن ذلك أن الأسرة لعنت اليوم الذي سافر فيه إسماعيل "ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا وتفقدك صوابك، وتهين أهلك ووطنك ودينك."(١٣٤)

وفي منولوج داخلي بين إسماعيل وذاته، عن صعوبة التكيف مع الوضع بمصر"هل يعود إلى أوربا.. ويبني نفسه بعيداً عن هذا الوطن المنكود؟.. وما فائدة الجهاد في بلد كمصر ومع شعب كالمصريين، عاشوا في الذل قروناً طويلة فتذاوقوه واستعذبوه .." (١٣٥).. فهنا تتجلى رمزية الخنوع والخضوع التي اتسم بها الشعب، في تلك الحقبة الزمنية.. على أية حال فإسماعيل "كالطير قد وقع في في فخ وأدخلوه القفص. فهل من مخرج ؟"(١٣٦).. ومن ثم فالمفارقة تلعب دورها، فإسماعيل"استيقظ ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب.. وخرج من الدار وعاد يحمل حقيبة، ملأى بالزجاجات والأربطة.. لقد عالج في أوربا أكثر من مائة حالة مثلها.. وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة، لا يهمخا مرضها بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه"(١٣٧)، فاستسلام فاطمة النبوية يرمز لاستسلام مصر للمخلص.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن:

- **هل نجح علم إسماعيل في علاج فاطمة ؟**

"ضاعف إسماعيل عنايته وكررأنواع الأدوية، وقلب جفونها.. أخذها إلى زملائه في كلية الطب ،وعرضها على الأساتذة فوافقوه على طريقته في العلاج، ونصحوه بالاستمرار.. وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح.. وهي لا ترى.."(١٣٨)، ومهما يكن من أمر فإن إخفاق

إسماعيل في علاج فاطمة، جعله يهرب من الدار، وباع كتبه وبعض الأدوات التي أحضرها من إنجلترا "وسكن في غرفة ضيقة في بنسيون مدام إفتاليا وهي سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله من أول يوم.."(١٣٩)، فإسماعيل يرى مصر"في الحقيقة مفسدة؛ فقد كانت سيدته اليونانية من ذلك النوع الوضيع الذي جعل إسماعيل يبدو كأنه يشعر أن مصر هي التي أفقرتها.. لاشك أن الافرنج في مصر من طينة أخرى غير التي رآها في أوربا "(١٤٠).. وهذه المعاملة القاسية طردته "إلى الشوارع يجوب من الصباح إلى منتصف الليل، وفي كل ليلة يجد نفسه – ولا يدري كيف – وسط ميدان السيدة يجوب حول داره.. يريد أن يرى وجه فاطمة.. ضحيته، ومع ذلك لم تثر.. لم تشك.. لم تلمه.. فما قالت لذابحها تريث.."(١٤١)

العودة إلى الجذور

فإسماعيل تناديه الجذور فهو يعود للسيدة زينب مسقط رأسه ورمز الجذور. بل نجده يلتمس لأهل الميدان العذر،"لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه في الميدان: مساكين كل من خدمهم منَّ عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة.. هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته. لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد، في خطوة واحدة فالطريق عنده معهود والمجد قديم،والذكريات باقية.

(١٤٢).. ومهما يكن من أمر، فقد تغيرت نظرة إسماعيل لأهل الميدان من مجّهم والضجر من خنوعهم لاستنباط الأسباب التي أدت بهم إلى هذا الأمر والنتيجة التي خرج بها أن الهمم والعثرات أثقلت كاهلهم فارتدوا للطفولة.. فالطفولة هنا ترمز للبراءة وعدم القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة لذلك هم في حاجة إلى قائد. فقد لخص المشكلة وأوجد لها الحل، فالحضارة العريقة تشهد بقيمة هذا الشعب، الذي استغله المحتل وأثقله بالفقر والجهل. ولكن سرعان ما عاد إليه عقله وتخلص من العاطفة. وطرح سؤالاً:

- **"هل في أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب؟**

هناك أبنية ضخمة، فن راق، أناس وحيدون فرادى.."(١٤٣).. فالسؤال يكشف عن صراع العاطفة والعقل. فالعاطفة التمست لهم الأعذار، وأشفقت على حالهم ،بينما تجلى صوت العقل؛ يعقد المقارنات بين الغرب العملي وبين الشرق الذي تتحكم فيه الشفقة.

فمن يستطيع "أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها،وذل الشرق وجهله ومرضه ؟ لقد حكم التاريخ ولا مرد لحكمه، ولا سبيل إلى أن ننكر، أننا شجرة أينعت وأثمرت ثم ذوت "(١٤٤).. فضلا عن ذلك فكلما حاول إسماعيل الفرار من الواقع والتفكير في العودة لأوربا "لكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية" (١٤٥)

فأي رمزية تتمثل في عودة إسماعيل للميدان ؟

فالميدان هو الجذور التي كلما حاول الانخلاع عنها رد إليها رغما عنه، فهو لا يجد تفسيراً لهذه الحالة التي تنتابه. فقد عاد من أوربا محملا جعبته بالعلم، لكن العلم يقف عاجزاً عن تفسير تلك الحالة التي انتابته في شهر رمضان وكيف تبدلت الأرض غير الأرض "كأن الجو خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً.علا الجو هدنة بعد قتال"(١٤٦).. فرؤيته تغيرت"ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين.."(١٤٧).. فإسماعيل يعود للجذور والأرض، فحين ارتد إليها تغيرت نظرته "اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة. ليس أمام جموع فرادى، بل أمام شعب يربطه رباط واحد وهو نوع من الإيمان.. فلم المقارنة؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن، وإذا دخلت المقارنة من الباب، ولى الحب من النافذة ؟"(١٤٨).. إذ يلعب إسماعيل يلعب دور التنويري، الذي يتحدى الجهل والظلامية وقد أدرك أن العلم وحده لا يكفي لهذه المهمة فبالعلم والإيمان يمكنه أن يساعد فاطمة ،ويجعلها تبرأ من العمى.. ومهما يكن من أمر فإن ليلة القدر التي تحمل في قلب إسماعيل ذكرى حنين غريب"ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها ورفع إسماعيل بصره، فإذا بالقنديل

في مكانه يضئ كالعين المطمئنة التي رأت، وأدركت، واستقرت. خيل إليه أن القنديل وهو يضئ، يومئ إليه ويبتسم.. وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول في نفسه للميدان وأهله: تعالوا جميعا إلي.."(١٤٩).. فليلة القدر ترمز للحظة تسرب النور إلى قلبه مرة أخرى وعودته لجذوره الدينية ومن ثم توقفت المقارنات وحل محلها الإيمان فبالعلم والإيمان يمكن أن يكتمل العمل فالعلم وحده وقف عاجزاً أمام مرض فاطمة. وكأن حقي يريد أن يقول أن الشرق بإيمانه المتجذر في النفوس يتفوق على الغرب بماديته المطلقة "لقد أصبح إسماعيل واعياً في الإنسان لما يسميه هيدجر"الشئ نفسه"(١٥٠) وهو مبدأ عدم التغير .

"ويكون هذا أوضح لدى الفلاح الذي يكون قريباً من الأرض فيزيقياً وأن تكون على علاقة بالأرض في مصر، معناه أن تكون قريباً من الأساس غير المتغير للإنسان.غير أن جوهر مصر يبدو للوهلة الأولى إسلامياً؛ فرمضان أيقظ إسماعيل على الطابع الحقيقي للمصريين، والعودة للإسلام كانت الخطوة الأولى لتجاوز المظهر المخادع للمجتمع الحديث، غير أن السعي لابد أن يستمر ويتجاوز الدين وسيلة لتحقيق الهوية "(١٥١)

إنَّ عودة إسماعيل للإسلام كان سبباً من أسباب إيمان فاطمة النبوية

به، وبالشفاء على يديه.. ففاطمة التي ترمز لمصر بشرقيتها وفطرتها وتجذرها في القيم تماثلت للشفاء حين دخل إسماعيل ونادى فاطمة:"تعالي يافاطمة لاتيأسي من الشفاء. لقد جئتك ببركة أم هاشم ستجلو هذا الداء.. وفوق كل ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين، وكيف تجلسين وتلبسين، سأجعلك من بني آدم.."(١٥٢).. كمااستطاع إسماعيل أن يمزج الغرب بجذور الشرق.

فالرمز يتجلى حين قال لفاطمة "سأعلمك كيف تلبسين.."

فنهاية قنديل أم هاشم جعلت من البطل يعود لجذوره، ويمتزج بالأرض من جديد،"وافتتح عيادته في حي البغالة بجوار التلال، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون. الزيارة بقرش واحد.. وتزوج إسماعيل فاطمة وأنسلهاخمسة بنين وست بنات، وكان في آخر أيامه ضخم الجثة، أكرش.."(١٥٣).. إذ انخرط إسماعيل في المجتمع"اعتمد على الله ثم على علمه ويديه فبارك الله في علمه ويديه. ما ابتغى الثروة.. وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه"(١٥٤)..

وهكذا جاءت النهاية تحمل رمزية كبرى؛ فالعلم وحده لا يكفي لبناء الأمم، لكن بالعلم والإيمان معاً نال إسماعيل النجاح، وحين خلع عباءة التمرد نظر لأهله نظرة رضا، فترك في نفوس أهل حي السيدة

ذكرى طيبة، يذكرونه بالجميل والخير.

ومن ثم ختم الرواي العليم الرواية، بقوله:"غير أنني فهمت من الحظات والابتسامات أن عمي ظلَّ عمره يحب النساء، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعاً."(١٥٤)، وكأن ماري التي فضت بكارة فطرته تركته يعاني آثار تحررها، حتى بعد عودته إلى مصر لم يتحرر من شهوة جامحة، أشعل نيرانها الغرب والتحرر.

آليات الأسلوب عند حقي

اللغة: لقد استطاع يحيى حقي من خلال اللغة، أن يحول شخصياته لشخصيات حية من لحم ودم، فقد فطن لأهمية الأسلوب "فكل شيء يوزن بدقة، ويخطط له بعناية، وقد قال حقي نفسه في مقدمته الأتوبيوجرافية لمجموعة قنديل أم هاشم أنه كان واعياً بالأسلوب على الدوام، وكان شغوفاً باستخدام التقنيات الجديدة "(١٥٥).. فضلا عن ذلك فقداستخدم ضمير الغائب، ليحافظ على وجود مسافة تفصله "عن قصة كان يمكن أن تبدو أتوبيوجرافية إذا لم تكن هذه المسافة فيفقد الأثر الفلسفي اللازم "(١٥٦).. كما استطاع أن يوظف العامية"وقد داعبتنا العامية أول الامر فهممنا أن نجري إليها – لا هربا من مشقة الفصحى فحسب – بل لأننا كنا نتلهف أن يكون الأدب صادق التعبير عن المجتمع"(١٥٧).. فالتعبير بالعامية يجب

أن يكشف "عن ذوق رفيع، وعن مهارة المتكلم وأصالته، ومن ثم يكشف عن مهارة مستخدمي العامية جميعا"(١٥٨).. وكما قال فيال:" فإن هذه القاعدة الأخيرة، تبدو وكأنها تسوغ عدم الاتساق في القواعد الأخرى، وتطبيقها"(١٥٩) فقد مزج يحيى حقي بين الفصحى والعامية، وجاءت العامية أداة من أدوات الخلق الفني فحولت المشاهد المقروءة لمشاهد سينمائية حية صادقة.. وتجلت العامية في قول سكير خمارة "آنست" وروني أجعص فتوة.."(١٦٠)، وفي قول فاطمة النبوية لإسماعيل عند عودته :"مين ؟"(١٦١).. وفي قول والده لوالدته حين عودة إسماعيل:"**ياولية بلاش خوتة**"(١٦٢).. وفي قول إسماعيل: "أهي دي أم هاشم بتاعتكم هي اللي حتجيب للبنت العمى.. أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت.."(١٦٣).. مهما يكن من أمر"هذا هو يحيى حقي ،من داخل عالمه التأملي والفكري، ووجدانه نحو الوفاء الشديد للقلم.. والبحث الشديد للكلمة واحترامه لها مما يجعله يجتهد أشد الاجتهاد لكي يضعها في قالبها المطلوب. فلا كلمة زائدة، أو كلمة في غير مكانها "(١٦٤)

ملخص الرمز في أدب يحيى حقي رواية"قنديل أم هاشم" أنموذجا

د.نجلاء عبد السلام محمد نصير

إن رواية "قنديل أم هاشم"قد رصدت العلاقة بين الشرق والغرب، وقد عرضها "توفيق الحكيم" في "عصفور من الشرق"، واشتغل عليها الطيب صالح من خلال "موسم الهجرة إلى الشمال" ويقول في ذلك يحيى حقي:"سأرجع من جديد إلى روما، لأنني بعد أن أقمت خمس سنوات عدت إلى مصر وأحسست بصدمة كبيرة وأخذت أسأل نفسي: ما الذي حدث؟ لماذا هذا التأخر؟ صدمة شديدة أصابتني فاخترت أن أعبر عنها في شخصية شاب مثلكم من عائلة فقيرة سافر إلى أوربا ليتعلم وعاد متنكراً لأصله. وقد حاولت تعرية هذه النزعة عند الشبان الذين ابتعثوا للدراسة فعادوا مرتدين "**البرنيطة وبين شفايفهم البايب**" ينفثون دخانهم في وجوهنا، في احتقار وتنكر. جعلت إسماعيل يرفض كل معتقداته المصرية.. حتى الدين. "وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير في بلادي وأهلها، كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يغيشون برزق يوم بيوم. وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩م شعرت بجميع الأحاسيس التي عبرت عنها في "**قنديل أم هاشم**".إن بطل

القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصري هزاً عنيفاً.. ويقول له:

- "اصح ..تحرك ، فقد تحرك الجماد!!!

Abstract

The Code in the Literature Yahya Hakki The novel "Kandil Um Hashim" is a model

Dr. Nagla Abdel Slam Mouhamed Nousir

The novel "Qandil Um Hashim" traces the relationship between the East and the West. It was presented by Tawfiq al-Hakim in "Asfour from the East" and worked on it by Tayeb Saleh through the "migration season to the north." Yahya Hakki says: "I will return to Rome , Because after five years I returned to Egypt and was very shocked and asked myself: What happened? Why this delay? I was very shocked and chose to express it in the character of a young man like you from a poor family who traveled to Europe to learn and returned to disguise his origin. This tendency among the young men who were sent to study returned the apostates, "Albrnita and their lips Bbib" Spit smoke They are in our faces in contempt and deny. Ismail did all his Egyptian beliefs ... even religion"

When I returned to Egypt in 1939, I felt all the feelings I expressed in Qandil or Hashim. The hero of the story is a young man, He wants to shake the Egyptian people violently He says to him:

"Correct .. move, it has moved the dead.

هوامش البحث:

١- ابن منظور الأفريقي طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠١٠م ج الخامس ص:٢٢٢_٢٢٣، انظر الفيروزي آبادي: القاموس المحيط ج٢،ط٢، نشر شركة البابي الحلبي القاهرة١٩٥٢م، ص: ١٨٣، المعجم الوسيط إشراف إبراهيم مصطفى وآخرون ج١، مطابع الأوفست، مصر د.ت ص: ٣٨٥

٢- سورة (أل عمران) الآية ٤١

٣- د.محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م، ص: ٨

٤- انظر الجاحظ: البيان والتبين تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة١٩٨٥، ج:١ ص:٧٠، انظر ابن رشيق: العمدة تحقيق محي الدين بن عبد الحميد، دار الجيل١٩٨١م ص: ٤٠٦، الخطيب القزويني: الإيضاح تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي الشركة العالمية للكتاب، بيروت١٩٨٩م ص:٤٤٦ فقد عد القزويني الرمز فرعاًمن فروع الكتابة

٥- د. درويش الجندي: الرمز والرمزية في الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر (د.ت) ص: ٤٤

٦- قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ١٩٧٩م، ص:٦١_٦٢ وجدير بالذكر أن د. طه حسين، ود. عبد الحميد العبادي قد حققا كتاب نقد النثر ونسباه لقدامة، لكن ثبت أن هذا الكتاب لابن وهب واسمه البرهان في وجه البيان حققه د.أحمد مطلوب، د.خديجة الحديثي، مطبعة العاني بغداد ١٩٧٦

٧- د.مجدي وهبة: معجم المصلحات والأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥ص: ١١٨، انظر د.محمد غنيمي هلال: قضايا معاصرة في الأدب

والنقد، دار العودة بيروت ١٩٨٧م،ص:٥_١٠

٨- د.درويش الجندي: الرمزية في الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٦م، ص:١٤

٩- د.محمد غنيمي هلال قضايا معاصرة في الأدب والنقد ص: ٩

١٠- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف القاهرة ،مصر ط٣ ،١٩٨٤م ص: ٣٢

١١- د.محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٥م، ص:٣٩

١٢- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ص: ٣٢

١٣- أدونيس، زمن الشعر، دار العودة بيروت ط٣ ١٩٨٠م ، ص:١٨٠

١٤- إيليا حاوي: الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة بيروت، لبنان (د.ط) ١٩٨٠،ص:١٤٣

١٥- د.صلاح فضل: شفرات النص دراسة سيسيولوجية في شعرية القص والقصيد، الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر (د.ط) ١٩٩٩م ص: ١٣

١٦- د. درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي ص:١٤، وانظر د. زكي نجيب محمود: الفلسفة والنقد الأدبي مجلة فصول، مجلد٤، عدد١، القاهرة ١٩٨٣م، ص:١٨

١٧- انظر د. عبد المنعم تليمة مقدمة في نظرية الأدب، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٦م، ص: ٢٢

١٨- د.نهاد صليحة، المدارس المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٢م ص: ١٣

١٩- ظهرت الحركة الرمزية في الشعر بفؤنسا بين عام ١٨٨٠-١٩٠٠م على وجه التحديد وأهم روادها (بودلير-فرلبين-رامبو-مالارميه وغيرهم، انظر هنري

ببير: اتلأدب الرمزي ترجمة هنري زغيب ص:٨ وما بعدها من منشورات عويدات بيروت، باريس وذلك بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية بقرنسا (د.ط)١٩٨١م

٢٠- د.نهاد صليحة، المدارس المسرحية المعاصرة ص :٩

٢١- د.عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر ط٥، دار العودة بيروت ١٩٨٨م ص: ١٩٥

٢٢- د.إحسان عباس،فن الشعر، دار صادر بيروت١٩٩٦م، ص: ٢٠٠

٢٣- د.محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة بيروت ١٩٨٧م ص: ٣٩٨

٢٤- تشارلز تشادويك، الرمزية، ترجمة نسيم يوسف إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٢م ص:٤١_٤٢

٢٥- أدمون ولسون، قلعة اكسل، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م ص:٢٣

٢٦- هنري بير، الأدب الرمز، ترجمة هنري زغيب ط١، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨١م ص:١٠

٢٧- د.نهاد صليحة، المدارس المسرحية المعاصرة، ص: ١٣

٢٨- الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط المركز الثقافي العربي بيرت١٩٩٠م، ص: ١٨٩

٢٩- انظر د.زكريا عناني: يحيى حقي سيرة ذاتية غير ذاتية من فعاليات مؤتمر المفكر الأديب الفنان يحيى حقي المنغقد قي ١٣، ١٤ ابريل ٢٠٠٥م جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية، الجلسة الثالثة اليوم الثاني الخميس١٤ ابريل، وانظر مريام كوك: تشريح مفكر مصري ترجمة خيري دومة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م، المشروع القومي للترجمة، ص:٢٢_٢٣

٣٠- سمير وهبي: تقييم نقدي لكتابات يحيى حقي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة،القاهرة ١٩٦٥م ص: ١٢

٣١- د.محمد زكريا عناني: يحيى حقي سيرة ذاتية غير ذاتية ص:٢-٣-٤

٣٢- د.جابر عصفور: قنديل أم هاشم قراءة حديثة، مجلة العربي العدد ٥٥٤ يناير ٢٠٠٥م، ص: ١١١

٣٣- نفسه ص: ١١٢

* جدير بالذكر أن شارل فيال ترجم قصة قنديل أم هاشم إلى الفرنسية.

٣٤- مصطفى عبد الله: يحيى حقي من روما إلى روما، جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية ندوة مئوية يحيى حقي ١٣_١٣ ابريل ٢٠٠٥ ص: ٥_٦

٣٥- قنديل أم هاشم ص:٢٧

٣٦- فاروق عبد القادر: نظرة طائر إلى عمله الإبداعي، مجلة العربي ص:١٠٤، العدد ٥٤٤ يناير ٢٠٠٥م

٣٧- يحيى حقي:قنديل أم هاشم، الكتاب للجميع القاهرة هدية العدد١٦،٢٠٥ مارس ٢٠٠٤م ص: ٢٨، كتبت قنديل أم هاشم فيما بين عامي ١٩٣٩م، ١٩٤٠م ، ونشرت لأول مرة في سلسة إقرأ العدد١٨يونيو١٩٤٤م، وأضيفت لها في الطبعة الحالية سيرة الكاتب الذاتية التي ننشرها لأول مرة، ص ٣٧

٣٨- قنديل أم هاشم ص:٢٧

٣٩- قنديل أم هاشم: ص:٣٧

٤٠- نفسه والصفحة

٤١- نفسه ص: ٣٧_٣٨

٤٢- نفسه ص: ٣٨

٤٣- نفسه ص: ٣٩

٤٤- نفسه والصفحة

٤٥- نفسه ص: ٤٠

٤٦- نفسه والصفحة

٤٧- نفسه والصفحة

٤٨- نفسه ص: ٤١

٤٩- نفسه ص: ٤٤

٥٠- نفسه ص: ٤٣_٤٤

٥١- نفسه ص: ٤٨_٤٩

٥٢- نفسه ص:٥٧:٥٢

٥٣- يوسف أبورية، يحيى حقي في ذكراه: روح مصر كما عبر عنها صاحب القنديل، جسر الحنين، ص:٤

٥٤- قنديل أم هاشم ص: ٤٠

٥٥- نفسه ص: ٤٥_٤٦

٥٦- نفسه ص: ٤٧

٥٧- نفسه والصفحة

٥٨- نفسه والصفحة

٥٩- نفسه ص: ٤١

٦٠- نفسه والصفحة

٦١- نفسه والصفحة

٦٢- نفسه والصفحة

٦٣- نفسه والصفحة

٦٤- نفسه ص: ٤٢

٦٥- نفسه والصفحة

٦٦- نفسه والصفحة

٦٧- نفسه ص: ٤٥

٦٨- نفسه والصفحة

٦٩- نفسه والصفحة

٧٠- د.نهاد صليحة: المدارس المسرحية المعاصرة ص: ١٣

٧١- قنديل أم هاشم ص: ٤٣

٧٢- مريام كوك، يحيى حقي ص: ١٤٨

٧٣- نفسه والصفحة

٧٤- يحيى حقي، خليها ص ٥٧

٧٥- قنديل أم هاشم ص: ٤٩

٧٦- إف.هاوسويرث: الردة، وضعية المرأة الهندية (لندن١٩٣٣م) ص: ١١٠

٧٧- قنديل ام هاشم ص: ٤٩

٧٨- قنديل ص: ٧٩_٥٠

٧٩- د. نبيل راغب: المدارس الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٨٤م، ص: ٨٧

٨٠- قنديل أم هاشم ص: ٥٠

٨١- د.جابر عصفور، قنديل أم هاشم قراءة جديدة، مجلة العربي العدد ٥٤٤، يناير ٢٠٠٥ ص:١١٤

٨٢- د.رجاء عيد: القول الشعري، منشأة المعارف، مصر١٩٥٥م، ص: ١٣٣

٨٣- على أحمد سعيد"أدونيس" كلام في البدايات ط١، دار الآداب بيروت ١٩٨٩م ، ص: ٣١

٨٤- قنديل أم هاشم ص: ٥٠

٨٥- د.جابر عصفور، قنديل أم هاشم قراءة جديدة، ص: ١١٣

٨٦- مريام كوك، يحيى حقي تشريح مفكر مصري ص: ٤٠

٨٧- قنديل أم هاشم ص:٥٢

٨٨- نفسه والصفحة

٨٩- مريام كوك، تشريح مفكر مصري ص:١٣٤وانظر قنديل أم هاشم ص:٥٣

٩٠- قنديل أم هاشم ص: ٥٢

٩١- د.جابر عصفور: قنديل أم هاشم قراءة جديدة، ص:١١٤

٩٢- قنديل أم هاشم ص: ٥٢

٩٣- نفسه ص: ٥٣

٩٤- نفسه والصفحة

(*) ويشير نعيم عطية إلى أن ماري أيقظت رغبة إسماعيل انظر: يحيى حقي وعالمه القصصي القاهرة ١٩٧٨م ص: ١٣_١٠٣

٩٥- نفسه ص:٥٤

٩٦- نفسه والصفحة

٩٧- نفسه والصفحة

٩٨- نغسه والصفحة

٩٩- انظر قنديل أم هاشم ص: ٥٤_٥٥

١٠٠- نفسه ص: ٥٥

١٠١- نفسه والصفحة

١٠٢- نفسه والصفحة

١٠٣- انظر مريام كوك تشريح مفكر مصري ص: ١٣٤وما بعدها .

١٠٤- قنديل أم هاشم ص: ٥٦.

١٠٥- نفسه والصفحة

١٠٦- نفسه والصفحة

١٠٧- نفسه والصفحة

١٠٨- نفسه والصفحة

١٠٩- نفسه ص: ٥٧

١١٠- نفسه والصفحة

١١١- نفسه والصفحة وص: ٥٨

١١٢- نفسه ص:٥٨

١١٣- نفسه والصفحة

١١٤- نفسه والصفحة

١١٥- نفسه والصفحة

١١٦- نفسه ص: ٥٩

١١٧- نفسه ص:٥٩_٦٠

١١٨- مريام كوك: تشريح مفكر مصري ١٣٧ _١٣٨

١١٩- نفسه والصفحة

١٢٠- قنديل أم هاشم ص:٦٠

١٢١- نفسه والصفحة

١٢٢- نفسه والصفحة

١٢٣- نفسه ص: ٦١

١٢٤- نفسه والصفحة

١٢٥- نفسه والصفحة

١٢٦- مريام كوك: تشريح مفكر مصري ص:١٠٦_١٠٧

١٢٧- قنديل أم هاشم ص: ٦٢

١٢٨- نفسه والصفحة

١٢٩- نفسه والصفحة

١٣٠- نفسه والصفحة

١٣١- نفسه ص: ٦٣

وعن هذا المشهد يقول يحيى حقي:"مكثت أكثر من أسبوع أبحث عن الكلام الذي ينبغي أن ينطق به إسماعيل في هذا الموقف، وقد أحسست أنه يجب ألا يزيد عن لفظ واحد، إذ ليس من المعقول أن ينطق بجملة طويلة وهو في تلك الحال. وأردت أن يكون هذا اللفظ معبراً عن الأنين وعن الرغبة في البوح..وفي الاستعطاف...وفي تأكيد الانتماء... وبينما أنا حائر في البحث عن الكلمة المناسبة إذ تذكرت نصاًكنت قرأته عن حياة الفيلسوف الألماني "نيتشه" وبقي منها في ذهني أنه حين أصيب بهلوثة الجنون هبط من بيته الذي كان يقع فوق قمة جبل مرتفع وهو يصرخ "أنا...أنا...أنا"

عندئذ أدركت أن هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها، لأنها تجسد كل المعاني التي طلبتها خاصة وأن حرف النون فيه نغمة الأنين.

١٣٢- نفسه والصفحة

١٣٣- نفسه ص: ٦٤

١٣٤- نفسه والصفحة

١٣٥- نفسه والصفحة

١٣٦- نفسه والصفحة ،ص: ٦٥

١٣٧- نفسه والصفحة

١٣٨- نفسه ص: ٦٦

١٣٩- مريام كوك :تشريح مفكر مصري ص: ١٠٧

١٤٠- قنديل أم هاشم ص:٦٦

١٤١- نفسه والصفحة

١٤٢- نفسه ص: ٦٦

١٤٣- نفسه ص:٦٧

١٤٤- نفسه والصفحة

١٤٥- نفسه والصفحة

١٤٦- نفسه والصفحة

١٤٧- نفسه ص: ٦٨

١٤٨- نفسه ص:٦٨_٦٩

١٤٩- Der Feldweg"" ترجمة أ.بريو، ضمن كتابات Question 111"" باريس ١٩٦٨م ص:٩_١٥

١٥٠- مريام كوك تشريح مفكر مصري ص: ١٠٠

١٥١- قنديل أم هاشم ص: ٦٩

١٥٢- فسه ص:٧٠

١٥٣- نفسه ص:٧١

١٥٤- مريام كوك، تشريح مفكر مصري ص:٢٢١

١٥٥- نفسه ص: ٢٢٦

١٥٦- قنديل أم هاشم ص:١١

١٥٧- مريام كوك، تشريح مفكر مصري ص:٢٤٤

١٥٨- شارل فيال:أفكار يحيى حقي حول اللغة ضمن Revue de l'Occident"1973 Musulman et de la Mediterranee م ص:٤١٤

١٥٩- قنديل أم هاشم ص: ٤٢

١٦٠- نفسه والصفحة

١٦١- نفسه ص:٥٩

١٦٢- نفسه ص:٦٠

١٦٣- نهى حقي: أبى ثمرة حب، مجلة العربي العدد٥٥٤ يناير ٢٠٠٥، ص: ٩٩ .